كأس ويسكي في جنازة الشهيد

لا أظن المتنبي قادرا دائما على النوم ملء جفونه عن شواردها. وأميل الى الاعتقاد بأنه يصاب من حين لآخر بوعكة حزن، حين يتداخل طنين الذباب في هدير دمه.. ولكنه يكابر.

ولا يضيرني، ولا يضير المتنبي، أن أجد فيه أسوة، فأبوح ببعض ما أضمر من هاجس ازاء هجّائيه النيف والألف، مع اعترافي العلني بالحسد لأنني لم أصب بعد ما أصاب من قدرة على استدراج الحشرات المعتمة الى الهواء الطلق المشمس حيث تكتمل فضيحتها في نور الحقيقة الكامل.

وبما أنني على غير اطلاع منتظم على أكداس الورق التي تقذفها المطابع العربية المهاجرة أو المقيمة، فلا يبقى لي الا ما يمن به علي أصدقائي الطيبون في جهات الارض، من انجازات الحركة الثقافية ومتابعاتها.

أما الوجبة "الثقافية" الاخيرة التي زودني بها هؤلاء الاصدقاء مشكورين، فلا تتعدى أنباء الهجوم "البطولي" الذي يشنه علي من حين لحين فرسان دون كيشوتيون سلبتهم طواحين الحياة الهائلة أرواحهم وتوازنهم، واستدرجت رماحهم القزمة الى هواء الانتفاضة الطلق المشمس حيث اكتملت فضيحتهم في نور الشعر الكامل.

فعلى طريقة أيام البطالة الثقافية والسياسية، ينصب هؤلاء دواوينهم (يستحسن أن يتم ذلك في مقهى رصيف..)، يغمسون سباباتهم الرخصة في أفكارهم "الأوروبية الحديثة" ثم ينهالون بالسباب، خطيا وشفهيا، على شعراء اقترفوا خطيئة الصدق الفني حين غمسوا أقلامهم في دمهم الطازج وراحوا يكتبون الحياة والحلم شعرا في حجم الحياة والحلم.

ولما كانت "الانتفاضة" هي هم الحياة فلا غرابة في أن يكون شعر الانتفاضة هم الثقافة.

واذا كانت الانتفاضة مقدسة فهذا لا يعني بالضرورة أن كل ما يكتب فيها وعنها هو تنزيل مقدس.

ولا شك اطلاقا في أن شعر الانتفاضة يظل دائما وأبدا خاضعا لمقاييس النقد الأدبي، بقدر ما تظل الانتفاضة نفسها خاضعة لمقاييس النقد السياسي. ولا يحاولن أحد الالتفاف علينا لأنه ضائع لا محالة.

لكن لنتوقف قليلا عند لفظة "المقاييس" هذه، وسنلاحظ دونما حاجة الى المراقبة المتأنية أن هناك أكثر من مقياس وأكثر من منهج في المجال النقدي العربي. وسنلاحظ أيضا أنه منذ أواخر الستينات بشكل خاص، نشطت جدا في الصحافة الأدبية العربية تيارات ضحلة مجتزأة-وبمقدار محدود من الثقافة- من بعض مدارس النقد الغربي، دون استيعاب حقيقي لشروطها ودون فهم لملابساتها. ونلاحظ أن دعاة هذه التيارات من أشباه شعراء وأشباه مثقفين وأشباه نقاد، مارسوا ويمارسون نوعا متخلفا من "الارهاب" الفني باسم "الحداثة".

ويتضح دون جهد تأملي تحليلي، أن هؤلاء المتغربين

"المستغربين" أخذوا بما يلمع على السطح من نيون الثقافة الغربية وبلاستيكها، وانحلت مفاصلهم ازاء شعر جيرانهم وفنهم لا سيما وأن سيقانهم الضعيفة لم يقدر لها أن تقف على أرض الشعر العربي والثقافة العربية الصلبة. ومن هنا، فقد ذهبوا الى أن الشعر العربي لن يكون جيدا الا اذا كان فرنسيا أو انجليزيا مترجما. وبالمناسبة، وقبل أن تفوتني الملاحظة، فلا بد من الاشارة الى أن هؤلاء المصابين بعقدة القزامة، ما كانوا ليبتلوا بهذا الداء لو أنهم ثقفوا الشعر الأوروبي بعمق ولم يتجمدوا على أبواب الانبهار والحب الأعمى من النظرة الأولى.

لقد قيض لي العبور بحشد من هؤلاء الاخوة المسحورين، وتعمدت في أكثر من مناسبة وفي أكثر من حوار تنبيههم الى أن مفهومهم او مفاهيمهم حول الشعر والحداثة هي مفاهيم تعيسة لأنها تقوم عندهم على أساس عدائية التراث، وهو أساس لا يمكن أن يؤدي الى حداثة حقيقية. فمقولة الحداثة ينبغي أن تنسب الى شيء ما.. استجابة الى السؤال المشروع: حداثة بالنسبة لماذا؟ وفي حالة جهل هذا "الماذا" أو في حالة الخوف منه والتنكر له بدوافع استشراقية سياسية في جوهرها، فلا يظل لدينا أي مجال لاحترام هذه المفاهيم التعيسة وللتعامل معها بجدية.

إنهم يطرحون "الاستحداث" في مقام "الحداثة"، ويطرحون الغموض المبتذل في مواجهة الوضوح العسير، ويقدمون الهذيان المرضي على المباشرة الفنية، ويعتبرون الخلل العروضي الناجم عن الجهل والقصور ابداعا حرا من قيود الوزن، ويجزمون أن الهر بتهوفين كان سيتحول الى موسيقي عظيم لو أنه "تحرر" من نظام النوتة الموسيقية السلفي الأصولي الخطابي المباشر المنبري الخ ...

الأعرابي الذي يقود بعير الرولز رويس هو عندهم "حديث". أما الشاعر الذي يمسح التفاحة بكمه ويقضمها مقطوفة للتو عن أمها فهو عربي متخلف من العالم الثالث آسيوي أفريقي ميؤوس منه (ثمة سكين للتفاحة!).

ولما كانت الانتفاضة "ألامود" فانهم يخاطبونها باحتشام واضح: يا مدام انتفاضة لا يليق بك أن تعبري عن نفسك بهذا الشكل. من الأفضل لك أن تستبدلي الحجر وزجاجة المولوتوف بصاروخ حديث، ويستحسن ان يكون عابرا للقارات.. عليك بالتكنولوجيا الحديثة. ولا يليق بك أن يكون شعرك مباشرا مثل انفجار الشريان. أنت سيدة غامضة فليكن شعرك غامضا. العاطفة عيب. الحرارة عيب. الألم عيب. الفن عيب. خذي جهازا حديثا لضبط المشاعر. تعلمي برود أوروبا العظيمة. جربي كأس الويسكي في جنازة الشهيد. قولي شعرا لا تحفظه طالبات المدارس ولا يردده الأشبال في مواجهة جيش الاحتلال. ما هذه "تقدموا تقدموا" ؟ ما هذه "لا تعدوا العشرة؟" ما هذا الكلام الذي يدوي في شرايينك وفي ساحاتك وفي أزقة مخيماتك. لماذا لا تنفجر براكينك بايقاع "السلو"؟

.. وبعد،

لكل نظرية فنية نماذجها. ووفق هذه النماذج نستطيع الحكم على هذه النظرية. وبالطبع، فقد "أبدع" هؤلاء المنظرون نماذجهم بالأطنان. وبالطبع، فقد كسدت هذه النماذج بحيث لم يجد شاعرهم قارئا سواه هو نفسه وبما أنهم يدركون مدى تخلف الجمهور المتنكر لعبقريتهم فقد لجأوا الى الترجمة وفوجئوا مرة أخرى بأن جمهور الشعر في أوروبا يستقبل النماذج المترجمة من شعراء "المباشرة"

و"الخطابية" و"المنبرية" الخ .. بما يليق بها من احترام وتقدير. وقد عبر الأوروبيون عن اعجابهم بتقديم الجوائز الأدبية لهؤلاء الشعراء الخطابيين الكيت وكيت. وحين قرأوا ترجمات مقلديهم فقد أمملوها على الفور لأن لديهم رأس النبع فما لهم ولبضاعتهم التي ردت اليهم بتقنية أدنى تبلغ في معظم النماذج درك الاسفاف.

اذا كان النقد حقا مقدسا فان الشعر أيضا هو حق مقدس، لأنه نتاج الحياة المقدسة والموت المقدس.

لقد حاول بعض الاستحداثيين تجريح قصيدتنا والنيل من عملنا بدعوى أننا نستمد مشروعيتنا الشعرية من قضيتنا السياسية.

وأولا لا عيب في كوننا شعراء قضية كبيرة، وأكثر من ذلك فنحن نعتز بأن شعرنا يقوم بدوره كاملا في تعميم هذه القضية والدعوة لها فنيا بما يزيد من اعتباره عالميا وبما يسهم في تحويلها الى هم بشري كوني.

وثانيا، ليس كل ما كتب ويكتب في هذه القضية هو فن كبير حقيقي وأصيل. وكما يبدو، فان ما يزعج هؤلاء السادة الاستحداثيين ليس الشعر الرديء الذي يكتب في القضية الجيدة. الذي يزعجهم هو الشعر الجيد بالذات، لأنه يقيم الدليل على تفاهة تنظيراتهم وعلى سقوط نماذجهم عربيا ودوليا، فنيا وسياسيا.

وبما أننا نفهم مسائل الضعف الانساني، فأننا نتعاطف مع مواجعهم وكثيرا ما نغض السمع عن ثرثراتهم وتسليتهم الذاتية. بيد أننا لا نستطيع القبول بقشور بزرهم المتناثرة أحيانا على أوراقنا الخاصة.

وأما بعد،

فقد كنت أوثر أن أنام ملء جفوني عن شواردها. غير أنني معترف وعلى رؤوس الأشهاد بأنني لم أجد سبيلا للنوم ملء الجفون بينما يتداخل طنين الذباب في هدير دمي.

لقد كابر أخونا المتنبي.

ولا قبل لي بالمكابرة.

«الناقد» العدد ٢٦ آب ١٩٩٠